أضواء على المذاهب الهدامة

الشيوعية

بقلم الشيخ عبد القادر شيبة الحمد
المدرس بكلية الشريعة

اطلق العرب على المذهب الاقتصادى الذى تسير عليه روسيا ومن نحا نحوها (الشيوعية) وهى فى أصل اللسان العربى من قولهم سهم شائع اذا كان غير مقسوم . وهذه المادة استعملت فى اللسان العربى فى عدة أحوال كذلك وكلها تدور على الذيوع والانتشار فمن ذلك قول العرب « الشاع » للمنتشر من بول الناقة .

(تاريخ)

مزدك :

عرف العالم القديم الشيوعية فى صور شتى ومن ذلك ما أثر عن «مزدك» الفارسى الذى ظهر فى عهد الملك « قباد » ملك فارس ، وكان هذا الملك ضعيفا مهينا فسدت فى عهده الرعية فزعم مزدك انه نبى ، وأخذ ينهى الناس عن المباغضة والمخالفة والقتال وأعلن أن سبب هذه الفتن هى النساء والاموال لذا رأى ان تباح النساء لكل راغب وان تباح الاموال لكل طالب حتى يشترك فيها الناس اشتراكهم فى الماء والهواء .

وقد انتشر مذهبه فى عامة بلاد فارس ودخل فيه « قباد » نفسه . وقام الفقراء بتقتيل الاغنياء ، وصار الجماعة منهم يدخلون على الرجل فيقتلونه ويثبون على أمواله ونسائه فغضب لذلك بعض عظماء فارس وبخاصة انو شروان بن الملك قباد

وزعيم آخر يقال له ـ ساجـــور ـ وتآمروا على مزدك وقتلوه وخلعواقباد وعينوا أخاه ـ جاماسب ـ ملكا عليهم وحاولوا القضاء على فتنة المزدكيـة ، غير أن قباد استطاع ان يعــود الى الملك وان يحبس أخاه ٠

فقوى بذلك شر المزدكية من جديد واستمرت الى ان قتل قباد وتــولى بعده ابنه انو شروان الذى ولد فى عهده رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أستقل بالملك وجلس عـــلى السرير وقال لخواصه :

ـ انى عاهدت الله اذا صـار الى الملك الا أبقى على أحد من المزدكيـــة الذين أفسدوا أموال الناس ونساءهم ٠

وكان عند سريره رجل مزدكى فقال لانو شروان :

ـ أتقتل الناس جميعا ؟

فنظر اليه انو شروان وقال له :

ـ أتذكر يا ابن الخبيثة يـــوم طلبت من أبى ان يأذن لك فى المبيت عند أمى فاذن لك ، ولمـــا ذهبت الى حجرتها لحقت بك وقبلت رجلـــك التى أثر نتن جوربها فى أنفى وتضرعت اليك حتى وهبتها لى ورجعت ؟

فأقر الرجل امام الحاشية بمـــا قال الملك ، فأمر بقتله فضربت عنقـه وأحرقت جثته ، ثم أمر أنو شروان باستئصال شأفه المزدكيـــة وقضى عنيهم ٠

(كـــارل ماركس)

كما عرفت الشيوعية فى العصر الحديث فى صور متقاربة بزعامـــة رجال تكاد تتشابه ظروف حياتهـــم مع حياة مزدك الفارسى وأشهـــر هؤلاء الزعماء « كارل ماركس » ٠

حيـــاته :

وقد ولد كارل ماركس عام ١٨١٨ من ابوين يهوديين غير أن أباه لـــم يستقر على دين آبائه اليهود ، فقـــد تنصر وترك دين اليهودية ٠ أمـــا كارل ماركس فقد ظهر فى أول شبابه حريصا على الدين فقد أثر عنه انـــه كان يقول آنذاك :

(الدين أساس الحياة الانسانية ، وهو يلقننا الحكمة والخير) ٠

نفسيتـــه :

بيد ان خبيثة ماركس كانت تعلن عن نفسها فى كثير من الاحيان ٠وقد كان هذا الاعلان يبدو تناقضـــه فى كثير من الاحوال ، ويعلل ذلـــك «اوتورهل» الماركسى اذ يقول :

ـ (انه كان نموذجيا فيما كـــان يعانيه من اختلال نشاطه الـــروحى وكان على الدوام متقلبا حقودا لا يزال فى تصرفه عرضة لتأثير سوء الهضم والانتفاخ وهياج الصفراء وكـــان موسوسا يغلو كجميع الموسوسيـــن فى الشعور بمتاعبه الجسدية) ٠

وقد عثر على رسالة كتبها والد ماركس يصف فيها حال ولده بأنه يقضى جل لياليه مرهقا جسده وعقله فى دراسة لا لذة فيها معرضا عن جميع الملهيات فى طلب المشكلات الغامضة ليهدم غدا ما بناه اليوم ٠

وقد كان ماركس يهمل دروسه وينقطع عن معهده الاسابيع المتواصلة متابعا لما شذ من الاراء التى يبنيها اليوم ويهدمها غدا او باحثا عن اللذة الجنسية والمتاع الجسدى ٠ وقد شغف اولا بدراسة القانون ثم تركه، وشغف بدراسة الفلسفة ثم تركها ، واشتغل بدراسة المذاهب الاقتصادية وحصل على شهادة الدكتوراه بالمراسلة من جامعة جينا الالمانية عام ١٨٤١ م

وكان ماركس أيام حياته الدراسية عالة على أبيه ـ هرشل ـ فلما مات ابوه صار عالة على امه وأخته حتى عجزتا عن مواصلة الانفاق عليه ، فصار يلجأ الى الاستدانة من أقربائه واصدقائه وبخاصة من ـ انجلز ـ قرينه فى الدعوة الى الشيوعية ٠

وكان أصدقاؤه اذا ضاقوا من طلباته حاولوا ان يكلفوه ببعض الاعمال التى قد تدر عليه بعض الرزق ولكنه كان يبوء بالفشل فى كل عمل يسند اليه ٠

وكان ماركس قد تعرف على فتاة بارعة الجمال اثناء دراسته للحقوق فى جامعة بون تدعى ـ جينى ـ ولم يكن احد قد اشتم منه رائحة نزعته الشيوعية الى ذلك الحين ٠ وكان عمره لا يتجاوز العشرين ٠ وقد وقعت الفتاة فى قلبه وهام بها ، ولم يكن فى اول امره ذلك يفكر فى الزواج منها نظرا لانها من طبقة فوق طبقة اهله ، والتقاليد تقف حجر عثرة فى سبيله غير أن الفتاة بادلته الحب ورغبت فى الزواج منه ولم تعبأ بالفوارق الطبقية التى توجد بينهما ٠

وقد بذل ماركس وجينى كل ما يستطيعان لتحقيق حلمهما فى الاقتران الرسمى وتمكين عواطفهما المشبوبة من الحصول على ثمرة طويلة ، حتى تمكنا من ذلك اذ أعلنت الفتاة فى عزم واصرار انها لن تتخلى عن ماركس مهما كانت الفوارق الطبقية بينهما ، وانها راضية به على أى حال ٠

وعلى الرغم من تحقيق هذا الحلم فقد بدأ ماركس يشعر بالحقد الثائر نحو نظام الطبقات الذى كاد يحول بينه وبين حبيبته جينى ، وقد بدأت مشكلة المعاش ـ له ولزوجته ـ تتعقد امام ماركس فقد زادت نفقاته ولم يتحسن انتاجه ولا سيما بعد أن صار ذا اولاد ٠

وقد صورت زوجته جينى ماصارت اليه هى وزوجها من البؤس فى كتاب الى صديق لها تطلب منه ان يمد لها يد المساعدة قالت فيه :

(ائذن لى ان اصف لك يوما من ايام هذه الحياة ، وسترى ان غيرنا لم يقاس ما قاسينا • فأنا مريضة سقيمة ومع ان ثديى وظهرى بهما اوجاع وآلام بالغة فاننى مضطرة الى أن أرضع طفلى الرابع الحديث الولادة لاننى لا استطيع ان ادفع أجرةمرضعة، ولكن كان طفلى يرضع الحزن والالم والوجع فيتلوى من المرض ليلا ونهارا•

ومع هذا الفقر والحاجة فقد دخلت علينا صاحبة المنزل وطلبت منا أجرة البيت كما طالبت بما علينا لها من القروض ، ولما كنا عاجزين عن الدفع فقد حجزت على كل ما نملك فى البيت حتى فراش الطفل وباعته بما لها علينا من الدين ، ثم طردتنا الى الشارع والمطر ينهمر بغزارة ، والبرد قارس لا يرحم ، وبذل زوجى ماركس كل ما فى وسعه من جهد فلم نجد من يقبل ايواءنا) •

كما كتبت جينى مرة اخرى تصف احدى ليالى البؤس التى مرت بها وبماركس فتقول :

ـ (أحست ابنتنا بنزلة شعبية ، وصارعت الموت ثلاثة ايام ثم ماتت وأخذنا نبكى عليها ولم يكن لدينا ما نجهزها ونكفنها به ، وأبقينا الجثة حتى نجد ما نستعين به على دفنها ، ومضيت الى جار فرنسى مهاجر فأعطانى جنيهين ! ••

وأسفاه ! •• وفدت ابنتنا الى الدنيا فلم تجد مهدا وعندما غادرت الدنيا لم تجد كفنا) •

من هذه الصور نستطيع أن نعرف الدوافع التى حدت بماركس أن يكون داعيا لمصارعة الطبقات ثائرا عنيدا فى الدعوة الى الشيوعية ، عبدا ضارعا امام محراب المادية •• ينفث سمومه فى نواح متعددة من أوربا ولا سيما فى انجلترا حتى مات عام ١٨٨٣ م•

ولما قامت الثورة الروسية ضد القياصرة من اسرة ـ رومانوف ـ بعد الحرب العالمية الاولى وتسلم قيادة الثورة ـ لينين ـ أحد الماركسيين ـ ظهرت الشيوعية الرسمية لاول مرة فى العصر الحديث •

(المذهب الماركسى)

روحه وصورته :

للمذهب الماركسى روح وصورة ،

اما روحه : فهى فلسفته فى الكون وأنه لا أثر فيه لغير المادة فلا ايمان الا بالمادية •

واما صورته : فهى المخططات الرئيسية التى لا بد منها لقيام المجتمع الشيوعى •

المـــادية :

اعلن ماركس بانه لا يؤمن بغير المادة • وأن كل شىء فى الوجود ان

هو الا أثر من آثار المادية والمادية في نظر كارل ماركس تعنى عدم الايمان بالغيب كما تعنى الكفر بالله فاطر السموات والارض ، وانكار جميع المظاهر الدينية والمذاهب الروحية ، والمنازع الاخلاقية ، والتقاليد ونظام الزواج والاسرة ، وكذلك انكار العواطف والتأثرات النفسية والوجدانية ، والعلوم والمعارف والآداب فهذه كلها في نظرهم من تضليلات اصحاب الثروة (الرأسماليين) لاستغلال الفقراء والمساكين • وليس هناك الا المادة فهي التي تكون وقائع التاريخ وما المظاهر الكونية كلها الا مادة بحتة •

الدين :

يزعم ماركس ان الدين وسيلة من وسائل الاستغلال • اخترعه أصحاب الثروة والمسيطرون على مصادر الانتاج ليخدروا به الشعب حتى يسهل استغلالهم وتتيسر سرقتهم وقد اضطرب ماركس في شأن الدين اضطرابا عنيفا فمرة يقول فيه : انه (افيون الشعب) الذى يخدرها عن رؤية الحقائق المادية • ومرة يزعم أنه انعكاس القوى الظاهرية التي تسيطر على معيشة الانسان اليومية على معنى أن الانسان يرى في المناظر الطبيعية قوة جبارة لا مناص له من الخضوع لها • فتراه يعبد منها ما لا يدركه • وطورا يصفه بأنه تزلف من واضعيه الى ارباب السلطان واصحاب رؤوس الاموال • وحينا يقول :

(انه الغذاء الخادع للضعفاء لانه يدعوهم الى احتمال المظالم في الوقت الذى لا يتمكن من ازالتها) • واحيانا يقول : هو خمرة الشعوب يروضها على الفقر والمسكنة ويلهيها بمايغريها من نعيم الآخرة عن نعيم الدنيا ليستأثر به سادة المجتمع ويغتصبوا منه علانية او يسرقوا منه خلسة ما يطيب لهم ان يغتصبوه او يسرقوه)•

وموقف ماركس المضطرب في الدين قرينة لاضطرابه النفسي •وعجز ظاهر عن مقارعة الشرائع وقد فاق ماركس الدهريين في انكار ما وراء المادة اذ قالوا : (ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) •

فان ماركس حاول ان يفسر المظاهر الدينية **بهذه الاراء المضطربة** •

فاين الرأسماليون الذين اتىوحيهم بالاسلام ؟ وهل علم ماركس والماركسيون بقصة الملأ من قريش حينما أرسلوا احد زعمائهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له:

(ان كنت تريد المال جمعنا لك منه ما تريد حتى تصير أغنانا ، وان كنت تريد الملك ملكناك علينا ، وان كان بك شيء عالجناك) •

وحينما انتهى سفير قريش من هذا الخطاب يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

(انتهيت يا عم ؟ ثم يقرأ اول سورة صلت حتى يبلغ (فأن اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ·

وحينئذ تتسرب أنوار الحقيقة الى قلب ذلك السفير ويخاف على نفسه فيضع يده على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول ناشدتك الرحم ان تكف · ثم يأتى قومه وينصحهم طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول :

(ان لكلامه لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق ، وانه ليس من كلام البشر) ·

وهل علم ماركس والماركسيون قصة الملأ من قريش حينما اجتمعوا فى بيت ابى طالب يقولون له :

(اما ان تنهى محمدا عن تسفيه أحلامنا ، وتضليل معتقداتنا او تخلى بيننا وبينه) حتى يقول له عمه : يا ابن أخى لو أبقيت على نفسك فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله او اهلك دونه) ·

وهل يظن ماركس والماركسيون أن الملأ من قوم فرعون هم الذين أوحوا الى رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام بالدين الفذى جاءهم به ودعاهم اليه فيقول فرعون : وما رب العالمين ؟ فيقول : « رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين » فيقول لمن حوله : ألا تستمعون ؟

حتى يقول موسى : « ربكم ورب آبائكم الاولين » فيقول فرعون : انرسولكم الذى أرسل اليكم المجنون · فيقول موسى « رب المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون » حتى يقول فرعون: « لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين » فيقول موسى «أولو جئتك بشىء مبين » ·

وهل يظن ماركس والماركسيون أن الملأ من قوم فرعون او من بنى اسرائيل هم الذين أوحوا الى موسى بتحريم المراباة وان يقاد للنفس بالنفس ، والعين بالعين ، والاذن بالاذن والسن بالسن ، وان الجروح قصاص ·

وهل يظن ماركس ان اغنياء اليهود والرومان هم الذين اوحوا الى عيسى بن مريم حتى جاء بالانجيل وهو الذى أثر عنه انه يقول :

« ان دخل الى مجمعكم رجل واحد بخواتيم الذهب فى لباس بهى ودخل معه فقير بلباس وسخ فنظرتم الى اللابس اللباس البهى وقلتم له :

ـ اجلس انت هنا حسنا ·

ـ قف انت هناك او اجلس تحت موطىء القدمين ٠

فهل لا ترتابون فى أنفسكم وتصيرون قضاة أفكار شريرة ؟)

وهل علم ماركس ان رجلا من فقراء المسلمين مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع بعض اصحابه رضى الله عنهم فقال ما تقولون فى هذا قالوا :

حرى به ان خطب الا يخطب ، وان قال الا يستمع وان شفع أن لا يشفع، ثم مر رجل من أغنياء المسلمين فقال ما تقولون فى هذا ؟ قالوا : حرى به ان خطب أن يخطب وان شفع أن يشفع وان قال أن يستمع ٠ فقال عليه الصلاة والسلام :

(هذا ـ يعنى الفقير ـ خير من ملء الارض مثل هذا ـ يعنى الغنى ـ) ٠

ولا شك ان ماركس يجهل هذه الحقائق ولا يدرى عنها شيئا ولو ادعى معرفتها لكانت البلية أخطر والمصيبة اعظم :

فان كنت لا تدرى فتلك مصيبة
وان كنت تدرى فالمصيبة اعظم

الاخلاق والاداب :

يحارب الماركسيون جميع الاخلاق التى قد يتصف بها شعب من الشعوب او فرد من الافراد ، بدعوى ان هذه الاخلاق سواء كانت فردية او جماعية ما هى الا اثر من الاثار التى أوحى بها « الاقطاعيون » ٠ وان هى الاخداع وتضليل للعمال والفلاحين من قبل الملاك واصحاب الاموال ٠

والخلق الوحيد الذى آمن به الشيوعيون هو وجوب مخالفة سائر الأنظمة الاخلاقية ومحاربة عموم انواع الآداب المرعية فى المجتمعات الانسانية وبخاصة ما كان منها نتيجة للاوامر الالهية ٠

وقد قادهم هذا الشذوذ الخلقى الى هتك الاسرة ومحاربة ناموس الزواج ورأوا أن هدم ذلك من أقوى دعائم الشيوعية فتساوى الزواج والزنى فى نظامهم ، وحسن فى اعينهم وقاع أمهاتهم واخوانهم وبناتهم وعماتهم وخالاتهم ٠ وانحطوا فى سلوكهم الاخلاقى عن كثير من الحيوانات العجماوات ٠

وقد اصبحت لفظة « الكرامة » عندهم لفظة مرذولة فالمحبوب لديهم أن يطوروا بالرفقاء الانذال ٠ واضحت كلمة « الشرف » من الالفاظ المدسوسة على الانسانية بواسطة اصحاب الاقطاع فيجب أن تداس بالآقدام « والأمانة » دسيسة خبيثة من دسائس المحافظة على رؤس الاموال٠

المعارف والعلوم :

ويرى الماركسيون ان المعارف والعلوم انما ترجع الى حاجة الانسان ـ المادية ـ الجسدية منكرين ان يكون لعقله او وجدانه تأثير فيها ٠

كما ينكرون اشد الانكار أن تأتى من طريق السماء • وانما تكون فقط وليدة حاجته المادية ومطالبه الحيوانية

أما العلوم والمعارف والنظريات التى لا تخضع لهذا التفسير الشيوعى فهى فى نظرهم :

تضليلا •• وتخيلات •• واوهام

(المخططات الرئيسية لقيام المجتمع الشيوعى) :

يرى ماركس أنه لا بد لقيام المجتمع الشيوعى ــ من خمسة اركان يبنى عليها وهى:

١ــ استيلاء الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين على مقاليد الحكم فى أول الامر •

٢ــ تأميم وسائل الانتاج ومصادر الثروة •

٣ــ القضاء على رأس المال •

٤ــ القضاء على الطبقات •

٥ــ ثم القضاء على الحكومة •

(١ــ استيلاء الطبقة الكادحة على مقاليد الحكم)

يرى ماركس ان (الاجراء) ولا سيما الاجراء فى الصناعة قابلون « للثورة الاجتماعية » لانهم لا يملكون شيئا فى المصانع ولعلهم كذلك يحملون فى الغالب قلوبا مملوءة بالحقد والضغينة على اصحاب الاموال ،وهم الاداة السهلة اللينة التى تؤثر فيها مختلف الدعايات لذلك اعتبر ماركس أن اول المخططات الضرورية لقيام المجتمع الشيوعى هو قيام الطبقة الكادحة ــ البروليتاريا ــ من العمال الصناعيين والاجراء الزراعيين بالاستيلاء على مقاليد « الحكم » ومناصب الدولة حتى يهدم بهم الحكومات القائمة •

ونحن لا نرى عيبا فى هذه القاعدة من حيث ان تكون الحكومة من طبقة الفقراء فان الفقر والغنى فى نظرنا أعراض غير ذاتية بل تتغير وتتبدل ، اذ المال ظل زائل وعارية مستردة • والمرء عندنا باخلاقه وآدابه لا بأمواله وكثرة متاعه •

وما المال والاهلون الا ودائع
ولا بد يوما ان ترد الودائع

غير أننا لا نرى ان يكون المسيطرون على مقاليد « الحكم » ولا بد من طبقة الفقراء ، اذ الغالب عليهم الفوضى والجهل ولله در الشاعر اذ يقول :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولاسراة اذا جهالهم سادوا

غير ان نظام الماركسيين ينص على:

(ان قيام حكومة العمال والفلاحين هو شيء « مؤقت » وأنه حركة انتقالية الى مرحلة الشيوعية الحقيقية التى لا تبقى فيها حكومة وانما ينطلق الشعب حرا بلا حكومة ولا سلطان)

بيد ان واقع الحياة الشيوعية لم ير هذه النظرية مطبقة فى أى قطر

من الاقطار التي بنيت بهذا النظام • فجميع البلاد التي صالت الى الشيوعية قامت حكومتها من جنس الحكومات التي كانت في تلك البلاد قبل الحكم الشيوعي •

ولم يقع ابدا ان صارت حكومة شيوعية من طبقة العمال والفلاحين

ففي روسيا مثلا كان الدور الذي قامت به الطبقة الكادحة هو اشعال نار الثورة ضد الحكم القيصري والقضاء عليه • ولما تم لرؤساء الحزب الشيوعي ما أرادوا من سقوط عرش آل -رومانوف - قبض رؤساء الحزب الشيوعي على زمام الحكم وازاحوا العمال والفلاحين من الطريق وردوهم مدحورين الى المصانع والمزارع ليقاسوا تحت سخط الحزب الشيوعي اشد الوان المهانة والارهاق •

وقد قام العمال والفلاحون بعدة ثورات كانت تقابل بأنكى صنوف القمع والارهاب • ولم تمنع وسائل التعذيب الاجرامية هؤلاء من أن يقوم الكثير منهم باحراق المحاصيل وتبديد الماشية والاموال حتى لا تقع في يد هؤلاء الحكام المستبدين •

وقد حاول - ستالين - أن يقضى على ثورات الطبقة الكادحة بالوان شتى من انواع القتل والحبس والنفى في مجاهل - سيبريا - والتهديد والوعيد فلم يفلح •

وفي منشور له في هذا الصدد يقول :

(لكى يضمن الكولخوزيون - المزارعون - لانفسهم الحياة والعيشة يتطلب ذلك منهم ان يعملوا في « الكولخوزات » - المزارع التعاونية - ويحافظوا عليها ، ولا ينسوا مسؤوليتهم تجاهها) ولما قال العمال لستالين :

- لقد وعدتمونا بأن تكون الحكومة من العمال والفلاحين فلم لا تنفذون وعودكم ؟

قال ستالين :

« لقد انتقلت السلطة وتركزت في يد حزب واحد هو حزبنا ولن يشاركنا في توجيه الدولة أى فئة اخرى ، وهذا ما يعنيه - بالدكتاتورية العمالية » •

وهكذا نرى المخطط الاول من المخططات التي رسمها ماركس للمجتمع الشيوعي لم تكن الا حبرا على ورق - كما يقولون - بل صار العمال والفلاحون في المجتمع الشيوعي احط انواع العمال والفلاحين في العالم •

(٢- تأميم وسائل الإنتاج ومصادر الثروة)

يرى الماركسيون ان السبب الرئيسي لتكوين الطبقات هو وسائل الانتاج ومصادر الثروة فلا بد للقضاء على « نظام الطبقات » من القيام :

اولا - بتأميم وسائل الانتاج ومصادر « الثروة » وجعلها بدل ان

تكون ملكا لبعض الافراد ان تصير ملكا لجميع الامة ·

وهذا التأميم كذلك يعتبر خطوة اولى لخطوة تليها هى القضاء التام على رؤوس الاموال والملكيات الفردية مهما كان نوعها وهذه النظرية لا ترى أية حرمة لمن بيده شيء من مصادر الثروة ووسائل الانتاج · كما لا ترى اية قيمة لما بذله الافراد فى سبيل مشروع ولو فى الاصل على الاقل للحصول على ما بأيديهم من أموال ·

ولسنا نجادلهم بالادلة الدينية التى توجب مراعاة الحرم والمحافظة على حقوق ذوى الحقوق فان الدين فى نظرهم هو « أفيون الشعوب » وانما نقول لهم :

لقد اممتم مصادر الثروة ووسائل الانتاج ، فماذا فعلتم بهذه الاموال المؤممة ، وكان المفروض بناء على دعواكم الاساسية ان تصير ملكا للمجموع يتساوون فى الانتفاع بها· فهل صار فى متناول كل فرد من افراد امتكم أن يحصل على شيء من هذه الاموال يسد بها عازته ويقضى منها وطره · وحاجته ؟

والواقع ان الاموال المؤممة انما انتقلت من ملك اربابها ومكتسبيها الى خزينة الدولة ليتصرف فيها الحكام حسب اغراضهم واهوائهم وليبذلوا ما شاءوا فى سبيل امتداد حكمهم وسلطانهم ولينغمسوا بها فى الشهوات والملاذ الى حلوقهم وأذقانهم · وقد كانت نتيجة هذا ـ التأميم ـ سلب أسباب الغنى من الاغنياء وادامة الفقر والمسكنة للمساكين والفقراء ·

(٣ـ القضاء على رأس المال)

والمخطط الثالث من المخططات اللازمة لقيام المجتمع الشيوعى هو القضاء على « رأس المال » بدعوى ان رأس المال يشكل العمود الرئيسى للظلم الواقع على رأس « الطبقة الكادحة »·

أما كيفية هذا الظلم فيقرر الماركسيون بأن قيمة كل شيء هو العمل الانسانى الذى بذل فيه ، واذا لم يكن هناك استغلال وجب ان يأخذ العامل ثمرة العمل كلها ، الا أن صاحب رأس المال «يستغل» اضطرار العامل فلا يعطيه من قيمة عمله الا جزءا يسيرا قد لا يفى بكفايته ولا يقوم بحاجته الضرورية من القوت ثم يأخذ صاحب رأس المال الزيادة لنفسه ، ويصرفها فى توسيع ثروته فيزداد امعانا فى الظلم واغراقا فى سرقة حقوق العامل ·

وهذه الزيادة بين رأس المال الاصلى وقيمة الانتاج يسميها كارل ماركس « القيمة الفاضلة »·

وهذه القيمة الفاضلة قد ذهب اكثرها الى صاحب رأس المال ، وقد كان من حق العامل ان يستولى على هذه القيمة الفاضلة كلها لانها فى الواقع

عند – ماركس – قيمة عمله وثمرة كده

لذلك رأى ماركس من الضرورى القضاء على رأس المال حتى تتحطم السلاسل والاغلال التى يكبل بها الرأسماليون العمال والكادحين • ولا بد أن يسرى على الجميع بعد ذلك قانون قاطع هو :

«ان لكل حسب حاجته ، ومن كل حسب طاقته »ومعنى ذلك ان الدولة تكفل لكل انسان قدر ما يحتاجه فى معاشه من مطعم وملبس ومسكن ، وتكلفه فى نظير ذلك ان يبذل للدولة ما يطيقه من العمل!

هذا •• ودعوى الماركسيين أن رأس المال يشكل العمود الرئيسى للظلم الواقع على رأس الطبقة الكادحة هى دعوى فاسدة بل رأس المال قد يكون سببا فى كثير من الاحيان فى مد يد المساعدة والعون للطبقة الكادحة وتيسير اسباب المعايش لهم •

كما ان دعوى الماركسيين ان قيمة كل شىء هو العمل الانسانى الذى بذل فيه ، وان العدالة تقتضى ان يحصل العامل على جميع القيمة الفاضلة هى دعوى منافية للعدل والانصاف كذلك لما فيها من الغاء اعتبار الادوات والآلات التى بذلها صاحب رأس المال والتى يسرت للعامل هذا العمل ، كما أن أبسط قواعد الاقتصاد تبرهن على أن قيمة الشىء ليست العمل الانسانى الذى بذل فيه •

فالسلعة الواحدة قد يصنعها عامل فى يوم ويصنعها عامل آخر فى يومين وقد يباع كتاب فى سنة ما بدينار واحد ولا يساوى فى سنة اخرى اكثر من ربع دينار ، وهذا الصنف من الشراب قد يرتفع سعره فى بلد وينخفض فى بلد اخر فى نفس الوقت مع ان العمل الانسانى الذى بذل فيه انما هو عمل واحد •

بل قيمة الشىء غالبا تخضع لنظام « العرض والطلب » •

كما ان القانون الذى قرروا أن يكون لكل حسب حاجته ومن كل حسب طاقته ، هو قانون خيالى ، لان حاجات الناس متفاوتة كتفاوت طبائعهم • أى ان هذا العامل قد يكفيه قليل من الخبز والادام لتوليد طاقة العمل فى بنيته ، وقد يزامله عامل آخر فى نفس العمل ولا يكفيه ضعفه من الخبز والادام لتوليد طاقة العمل لديه ، كما ان بعض العمال قد يستطيع مباشرة عمله فى الشتاء بلباس خفيف ولا يستطيع زميله فى العمل ان يباشر الا بلباس ثقيل قد يكلفه ضعف ما يحتاجه زميله السابق.

ومما يبين فساد هذه النظرية ومجافاتها لنظام الطبيعة والفطرة هو: عجز الشعوب التى سقطت فى براثن دعاة الشيوعية عن تطبيقها ، كما انهم صاووا المثل الاسوأ فى ظلم الطبقة الكادحة من الفلاحين والعمال •

فقد صار العامل فى روسيا –مثلا– يطلب منه ان يقدم أقصى ما يستطيع

تقديمه من طاقة فى مدة معينة ، ثم تبيع الحكومة مجهود هذا العامل باكثر مما كلفته حاجته التى فرضت انها مساوية لمجهوده ٠

فمجهود العامل الذى يساوى الف ريال كان ينبغى ان يحصل فى نظيرة على قدر حاجته التى يرى نفسه محتاجة اليها وقد تصل الى الف ريال مثلا ٠

٠٠ غير ان الحكومة هى التى حددت حاجته بنفسها دون ان يحددها المحتاج نفسه ، فقد قدرت له ـ مثلا ـ ستمائة ريال ، فسرقت منه اذا اربعمائة ريال ٠

وبهذا يكون هؤلاء الماركسيون قد وقعوا فى انحس مما عابوه على أصحاب رؤوس الاموال ٠ على أن دعوة القضاء على رأس المال قد فشلت عند التطبيق لدى الشيوعيين، فقد اضطرت روسيا ـ مثلا ـ الى أن تبيح للفلاحين ان يتملكوا قطعا صغيرة من الاراضى يستثمرونها لاستهلاكهم بشرط أن لا يعاونهم فى استثمارها آخرون ، كما نصت على ذلك المادة (السابعة والتاسعة) من الدستور السوفيتى

كما أباحت الحكومة للفرد «تملك» اشياء أخرى كالماشية والبغال ـ وان كانت الحكومة قد فرضت على الملكيات الفردية الصغيرة ضرائب باهظة حتى تتلاشى وتموت ٠

(٣ـ القضاء على الطبقات)

ذكرنا فى بحث تأميم وسائل الانتاج ومصادر الثروة ان الماركسيين يرون ان السبب الرئيسى لتكوين الطبقات وجود وسائل الانتاج ومصادر الثروة وانهم قرروا ان لا بد للقضاء على نظام الطبقات من القيام بتأميم وسائل الانتاج ومصادر الثروة وكأنهم بهذا يقررون ان القضاء على «الطبقات» لازمة من لوازم النظام الشيوعى بل هو أشد ضرورة من التأميم ٠ لذلك اذاعوا واشاعوا انهم يركبون كل صعب وذلول لتحقيق ذلك الامر الخطير ٠

تعريف الطبقة :

الطبقة فى نظر اكثر الباحثين هى الفئة من الناس التى تختلف فى مركزها الاجتماعى عن باقى الفئات التى تشكل معها مجتمعا ما ٠

فالعمال الزراعيون والصناعيون طبقة ، وصغار الملاك طبقة ، والمتوسطون فى الاملاك طبقة ، واصحاب الثراء الواسع والملك العريض والاقطاعيون طبقة ، والمهرة العسكريون طبقة والامراء والنبلاء طبقة ، ورجال الدين طبقة ٠

وقد يصير الانسان فى طبقة من هذه الطبقات بسبب النسب كما قد يصير اليها بسبب العلم ٠ ولا مانع ان ينتقل الانسان من طبقة الى طبقة اسفل ٠ على حد قول القائل :

تفس عصام سودت عصاما
وعرفته الكر والاحجاما
وصيرته بطلا مقداما

وقول القائل :

ابوك اب حر وأمك حرة
وقد يلد الحران غير نجيب

وهذا التعريف « للطبقة »لا يمنع وجود تعاون بين طبقة واخرى اذ هذا التفاوت الطبقى ضرورة من ضرورات العمران وسبب وجوده تفاوت الفطر • ولذلك يقال«الانسان مدنى بالطبع » قرر الله تعالى فى القرآن الكريم هذه الحقيقةاذ يقول :

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهمفوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » •

تعريف الطبقة عند ماركس :

اما كارل ماركس فقد عرفالطبقة :

« أنها الطائفة التى تكون لها مصالح معارضة لمصالح طبقة اخرى »

وعلى هذا التعريف لا بد منفرض الشقاق والنزاع ودوام الصراع بين عموم الطبقات ولذلك زعمالماركسيون انه من الضرورى القضاء على نظام الطبقات وايجاد مجتمع ديمقراطى على مستوى واحد تنعدم فيه جميع الفروق الطبقية على أية حال •

وقد سعى الشيوعيون جهدهم وبذلوا كل ما يمكن بذله لتحقيق هذه الغاية فهل انعدم من المجتمع الشيوعى نظام الطبقات ؟!

وجود الطبقات فى المجتمع الشيوعى :

والواقع ان المجتمع الشيوعى يتمثل فيه ما يتمثل فى غيره من الطبقات فلا يزال فى روسيا ــ مثلاــ طبقة العمال والفلاحين ،وطبقة القادة العسكريين ، وطبقة رجال البوليس السرى ، والمخابرات ، وطبقة العلماء والرجال الاكاديمين،وطبقة المهندسين، وطبقة الفنانين والرقاصين ، وطبقة زعماء الحزب الشيوعى •

وقد وجدت هذه الطبقات فى المجتمع الشيوعى بحسب تفاوت الدخل الذى قدرته الحكومة لهؤلاء حسب ميزان الاحتياج الذى صنعوه• فقد جعل المعدل الوسط لحاجة العمال والفلاحين ما بين ٦٠٠ــ٧٠٠ روبل ، كما جعل المعدل الوسط للفنانين والرقاصين يتراوح ما بين ١٤٠٠ الى ٢٠٠٠روبل • وجعل المعدل الوسط للقادة العسكريين والعلماء والمهندسين يتراوح بين ٤٠٠٠ الى ٧٠٠٠ روبل •

وقد عمدت الحكومة بعد الحرب العالمية الثانية الىبناء منازل لاعضاء الاكاديمية ومنحت كل واحد منهم سيارة وسائقا خاصا وبهذا تكون الشيوعية الرسمية قد أوجدت نظاما طبقيا انحس مما عند غيرهم من نظام الطبقات ولا شك أن محاربة اساس

النظام الطبقي ما هو الا وقوف في وجه الطبيعة التي طبع الله الناس عليها وحرب للفطرة التي فطر الله الناس عليها .

وقد سجلت حوادث التاريخ أن محارب الفطرة مدحور والمتصدى لقهر الطبيعة مقهور .

ولسنا بهذا نقرر ترفع وتعالى طبقة على طبقة او بغى فئة على فئة فنحن لا نرى فضل الرجل بماله ولا نرى فضله بوظيفته ولا نرى فضله بنسبه وانما الفضل عندنا بالاعمال الصالحة والاخلاق الفاضلة والمرء في الواقع باصغريه قلبه ولسانه .

(٥ـ القضاء على الحكومة)

الدعامة الخامسة من دعائم النظام الشيوعى هى القضاء على الحكومة والدولة . والشيوعيون يعتبرون ان القضاء على الحكومة هو النهاية الحتمية للنظام الشيوعى وفى ذلك يقول ماركس :

ـ (... وبعد ان تزول المنازعات بين الطبقات زوالا نهائيا خلال التطور وبعد أن يتركز الانتاج كله في ايدى الافراد المتشاركين عندئذ تفقد السلطة العامة طابعها السياسى) ثم يقول ايضا :

ـ (... والدولة هى سلطة الطبقة المنظمة تزول بزوال الطبقة وعندئذ يكون عهد الشيوعية بكل ما تعنى الكلمة) .

وكأن ماركس يقول ان وجود الحكومة مهما كانت من العوامل التى تقيد الشعب وتحول دون صبغته بكامل حريته فلا بد من زوال الحكومة لينطلق الشعب فى طريق حريته الى أقصى الحدود .

وكأن ماركس يرى ان حقيقة الشيوعية لا يمكن ان تتكامل ما دام على رأس الشعب حكومة تدبره وفى ذلك يقول :

ـ (... الشيوعية هى عهد تسوده الحرية وعصر يزدهر فيه الانسان اكمل ازدهار فهو يحتم مع زوال الطبقات زوال الحكومة) .

ونحن لا نستطيع ان نجزم هل كان ماركس جادا فيما يقول حينما يقرر هذه الحقيقة على انها من دعائم النظام الشيوعى ؟ وهل كان ماركس متمتعا بقواه العقلية حينما يخرج على الناس بمثل هذه النظرية التى لم يعرفها التاريخ البشرى فى مجتمع ما من المجتمعات المتمدنة او الهمجية على حد سواء ؟ وحتى لو فرض وجودها فى مجتمع بدائى همجى فهل يجيز العقل وجود مثلها فى مجتمع ذى حاجات متفاوتة بل والحاح فى طلب الكماليات .

وهل ظن ماركس ان فطر الناس المتباينة وطبائعهم المتنازعة سيئول بها الحال الى الزوال فيعيش الناس فى الارض يأكلون من نباتاتها المختلفة ولحوم حيواناتها المتغايرة الطبائع ،

ثم يصيرون فى نفس الوقت كملائكة السماء ؟!

ولا نذهب بعيدا لنراجع نحن أو غيرنا فى ذلك حوادث التاريخ وانما نلقى نظرة عابرة على واقع الحكومة فى « المجتمع الشيوعى » فالمعروف الذى لا يشك فيه من عنده ادنى اطلاع ان الحكومة فى بلاد الشيوعيين ومن ينحو نحوها تسير فى طريق « الدكتاتورية » الى حد لا نظير له فى المجتمعات الاخرى :

فمن مقررات ستالين :

(ان تقرير المصير لاى فرد او أمة او جماعة يجب الا يتضارب مع حق الحزب الذى يمثل الجماهير الكادحة فى ان يحكم حكما دكتاتوريا).

بين الشيوعية والاشتراكية

يستعمل الكثيرون الشيوعية والاشتراكية على معنى واحد غير أن بعض الناس يفرق بين الاشتراكية والشيوعية فى الجملة من وجوه :ـ

١ـ ان الاشتراكية هى الخطوة الاولى للشيوعية .

٢ـ ان الاشتراكية لا تمانع فى قيام حكومة من طبقة العمال والفلاحين بخلاف الشيوعية الحقيقية فانها لاتجيز أى نوع من الحكومات .

٣ـ ان الشيوعية لا تبيح أى نوع من الملكيات بخلاف الاشتراكية فانها تجيز وجود بعض الملكيات الفردية فى حدود ضيقة وعلى قواعد تؤدى فى النهاية الى تلاشى هذه الملكيات .

الاسلام والاشتراكية :

هذا ولم يزعم زاعم ـ مهما كان ان الاسلام والشيوعية قد يلتقيان ، فلم نسمع الى الان صوتا واحدا يقول:

ـ (ان الاسلام لا يتنافى مع الشيوعية)

اذ اصل الشيوعية هو انكار الالوهية والدين وانما سمعنا ان بعض الناس ـ وقد يكونون من المنتسبين للاسلام او للعلم ـ يزعمون ان الاسلام لا يتنافى مع الاشتراكية وقد يتعامون عن ان الاشتراكية مذهب ، خاص ذاتية هذا المذهب تخالف ذاتية الاسلام فى روحه وصورته كما يتجاهلون ان الاسلام دين الله الحق قد اتى بجميع مايسعد الناس فى معاشهم ومعادهم .

وان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك بابا من ابواب الخير الا دل الناس عليه ولا بابا من ابواب الشر الا حذر الناس عنه بيد انهم يقولون :

ان بعض نصوص القرآن كقوله تعالى « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » .

وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس شركاء فى ثلاثة : فى الماء ، والنار والكلأ » . تدل على صحة المذهب الاشتراكى .

وهذا ان دل على شيء فانما يدل على جهل هؤلاء بحقيقة الاسلام عموما، وبمعنى هذه الآية وذلك الحديث خصوصا فالآية نزلت تشرح مصرف الفيء • وهو نوع خاص له طابع خاص من بين الاموال الاسلامية • واما الحديث فقد بين موضع الشركة وهو الماء والنار والكلأ •

ولفظ الحديث يدل بمفهومه على أن ما عدا هذه الاشياء الثلاثة من الاشياء التى يمكن أن يتملكها الانسان لا اشتراك فيها • ولو سلمنا جدلا انه قد يفهم من هذه الادلة الدلالة على صحة المذهب الاشتراكى – وان كانت لا تدل بظاهر الفاظها على ذلك كما أشرنا – فان صريح الكتاب وصحيح السنة يدل بمالا مجال للشك فيه على حفظ ممتلكات الناس واموالهم فليستمعوا الى قوله تعالى :

« ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » •

والى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع :

« الا ان دمائكم وأموالكم واعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا • ثم يؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فيقول : الا هل بلغت اللهم فاشهد » •

ولا يختلف اثنان من اهل العلم فى صحة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول « من غصب شبرا من أرض طوقه الله بسبع ارضين يوم القيامة » فهذا هو دين الاسلام •

«ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين » •

مواصفات خيالية

جاء رجل الى نخاس فقال له : اطلب لى حمارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، ان خلا الطريق تدفق وان كثر الزحام ترفق لا صادم السرارى ولا يدخلنى تحت السوارى، ان أقللت علفه صبر ، وان زدته شكر، وان ركبته استقام ، وان ركبه غيرى هام • فقال له النخاس : اصبر ، فان مسخ الله أحدهم حمارا شريته لك •